بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسل الله ، وعلى خاتمهم محمد بن عبد الله ، وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه .

(أما بعد)

فقد طلبت إلىّ جريدة (الشرق الأوسط) المعروفة أن أشارك بالكتابة فى ملف فتحته منذ أول رمضان سنة ١٤١٧ هـ حول « مصير الأصولية » ويعنون بها : الأصولية الإسلامية .

وكنت مترددًا فى قبول ذلك ، ولكن بعض الإخوة الذين قرؤوا مقالات الملف فزعوا منها ، ومن كثير مما كتب فيها ، وألحوا علىّ أن أسهم فيها ، حتى يحدث التوازن المطلوب ، وحتى لا يغيب « تيار الوسطية » عن هذه الساحة .

ولهذا لم أجد بدا من الاستجابة لهم ، فبعثت إلى الجريدة بهذه الصحائف ، التى أضعها الآن بين يدى القارئ الكريم ، لتصدر فى سلسلة « رسائل ترشيد الصحوة » عسى أن تسهم فى تصحيح الأفهام ، ومطاردة الأوهام ، ودفع الشبهات ، ورد الأباطيل

والمفتريات ، عن الإسلام ودعوته وصحوته وأمته ، وما أغزرها ، وأوفرها اليوم !

وقد بعث إلىّ من زيورخ فى سويسرا الصديق البحاثة الأستاذ ثابت عيد ، يعتب على عتبًا شديدًا : أنى جاريت القوم « الغربيين » فى إطلاق كلمة « الأصولية » على ظاهرة الإحياء الإسلامى المعاصرة ، مع ما لهذا المدلول عندهم من مدلول بغيض ، فالأصولى يعنى « إرهابى - مجرم - متخلف » . . . إلخ .

وقد ذكرت فى بحثى أنى أفضل التعبير عن الظاهرة الإسلامية بالاسم الحبيب إلىّ ، الأثير لدىّ ، وهو « الصحوة » التى ألفت كتبًا عدة ، وألقيت محاضرات أكثر ، لترشيدها وتسديدها ، والإنتقال بها من مرحلة المراهقة إلى مرحلة الرشد ، ولكنى استخدمت هذه الكلمة لأسباب ذكرتها فى أصل البحث ، والصحوة أصدق تعبيرًا عن الواقع .

هذا وقد رددت على الأخ الكريم ثابت عيد برسالة جاء فيها :

وأنا - بلا ريب - أحترم وجهة نظرك ، وأقدرها حق قدرها ، وقد أشرت فى كلمتى إلى أصل نشأة المصطلح عند أهله ، ولكنى استخدمته بمفهوم آخر ، غير مفهوم القوم ، ونحن الذين نحدد مفهوم الأصولية التى نؤمن بها وندعو إليها .

وهذه طريقة فى الجدل مع الخصوم ، استخدمها الناس من قديم : عندما يضفى خصومك على فكرتك اسمًا منفرًا ، أو عنوانًا مبغضًا

لدى الناس ، فتأخذه أنت وتقول : نعم ، أنا أقبله ، ولا يضرنى تسميتكم لى بهذا الاسم والعنوان ، وأول من أشار إلى ذلك الإمام الشافعى فيما يروى عنه أنه قال :

إن كان رفضًا حبُّ آل محمد فليشهد الثقلان أنى رافضى !

وهو ما قاله الإمام ابن القيم وقد اتهم بالتجسيم :

فإن كان تجسيمًا ثبوت صفاته وتنزيهها عن كل تأويل مفتر !

فإنى - بحمد الله ربى - مجسم هلموا شهودًا ، واملأوا كل محضر !

يؤكد ذلك : أن كلمة « الأصولية » فى تراثنا كلمة محببة ، ونحن من زمن ندعو الناس إلى « العودة إلى الأصول » ، فهى تعنى الارتباط بالجذور والأعماق ، فى مقابل من يدعوننا إلى « اللحاق بالغرب » .

بل أنا أعتقد أن كلمة « الأصول » فى كل لغة ، ولدى كل دين سماوى : محببة ومحمودة ، حتى فى الدين المسيحى ، فمن ذا الذى يكره العودة إلى الأصول ؟ ولكن إطلاقها على ذلك الصنف من المسيحيين المتعصبين الجهلاء المتخلفين الإرهابيين . . . إلخ : إطلاق خاطئ من أساسه ، فهؤلاء ليسوا أصوليين بمنطق المسيحية ذاتها ، أما الداعون إلى الإسلام - بشموله وتوازنه وعمقه ويسره - فهم الأصوليون حقا .

ومنذ سنوات ألفت « أرجوزة » ساخرة عنوانها « الأصوليون »

كانت سلاحًا فى المعركة مع خصوم الإسلام ورسالته الحضارية [1] ، ولى أيضًا قصيدة عنوانها « أصولى » قلت فيها :

أصـــولىٌّ ، أُصـــولىٌّ أجل أنا ، لا وصولىٌّ ؟
أصـــولى ، فلى أصلى ولى نســبى الحنيفـىٌّ !
وأصـــل أصـــولىَ القرآ ن دســتورى الإلَهـىٌّ !
وسُـنَّة أحـــمد المختـتا ر لـى زاد ولـــى رِى !
وقـانونىَ شـــــرعُ الله لا الشـــرع الفرنســى !

إلى آخر تلك القصيدة .

على أية حال ، يجب أن نذكر القاعدة التى قررها علماؤنا من قديم : أنه لا مشاحة فى الاصطلاح ، ونحن نؤمن أن العبرة بالمسميات والمضامين ، لا بالأسماء والعناوين .

المهم أن تتحدد المفاهيم والمصطلحات بوضوح ، وأن تزول عنها غشاوة الغبش والإبهام ، وسوء الفهم .

ولا بد أن يعرف خصومنا ومحاورونا فى الغرب : أننا لا نعنى بـ « الأصولية » إذا قبلنا إطلاقها على « الصحوة المعاصرة » أو على « تيار الإحياء والتجديد الإسلامى » ما يعنون به من مفاهيم ،

---

(١) نشرت هذه الأرجوزة ، وقصيدة « أصولى ، أصولىّ » فى ديوانى : « المسلمون قادمون » .

وما يلزمها من لوازم ، حتى لا يلتبس الحق بالباطل ، ويختلط الحابل بالنابل .

وتركيزنا أبدًا إنما هو على تيار « الوسطية الإسلامية » القائم على التيسير والتبشير ، وعلى الجمع بين الأصالة والتجديد ، والموازنة بين ثوابت الشرع ، ومتغيرات العصر ، دون تعصب لرأى قديم ، ولا عبودية لفكر جديد .

وختامًا أقول ما قال سيدنا شعيب عليه السلام : « إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت ، وما توفيقى إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب » .

الدوحة : ٧ شوال ١٤١٧ هـ .

١٥/ ٢/ ١٩٩٧م

يوسف القرضاوى

* * *

تمهـــــيد

حول مفهوم الأصولية

قبل أن أتحدث عن « مصير الأصولية » وفق العنوان المطروح ، أود أن نحدد مفهوم هذا المصطلح الذى شاع وانتشر « الأصولية » . فالمعروف أننا لم نصك نحن هذا المصطلح ، إنما صك لنا وورد إلينا من الغرب ، وذاع بعد ذلك فى إعلامنا ، والمعروف أن هذا المصطلح نشأ فى البيئة الغربية المسيحية ، وأطلق على « الحرفيين المتزمتين » من المتدينين المسيحيين ، الذين يقدمون النقل على العقل ، ولذا يرفضه البعض منا لما يحمل من إيحاءات مجافية لثقافتنا ، وقيَم رسالتنا وحضارتنا ، ولما يحدثه من بلبلة وارتباك بين المتحاورين حين يريد أحدهما بالمصطلح أمرًا ، ويريد ثانيهما به أمرًا آخر مخالفًا ، كما قال المستشار طارق البشرى بحق .

● **« الصحوة » أصدق تعبيرًا :**

وهذا صحيح ولا شك ، ولهذا أفضل دائمًا أن أعبر عن الظاهرة الإسلامية المعاصرة بكلمة « الصحوة » فهى اللفظ المعبر عن واقع الحال بصدق ، وإن لم نذكر أن هذه الصحوة فى حاجة إلى ترشيد

وتسديد لمسيرتها فى الفكر والسلوك ، وهو واجب الدعاة والعلماء والمفكرين الصادقين .

* * *

● الأصول فى ثقافتنا :

ورغم هذا يمكننا أن نتنازل ونجيز استخدام مصطلح « الأصولية » بالنظرة إلى أصل الكلمة ذاتها ، فهى ليست غربية علينا ، وإن جاءت من بعيد ، فهى - بلغة علومنا العربية - مصدر صناعى منسوب إلى « الأُصول » .

وكلمة الأصول لها فى ثقافتنا الإسلامية مكان مرموق ، فنحن لدينا « أُصول الدين » أى أصول العقيدة ، ولدينا « أصول الفقه » أى أصول الشريعة ، وفى التعريف ببعض علمائنا الكبار يقال : كان عالمًا بـ « الأُصُولَين » أى أصول الدين وأصول الفقه .

ولكل علم عندنا أصوله المعتبرة ، فلعلم العقيدة أو الكلام : أصوله التى تتمثل فى مقدماته النظرية أو العقلية التى يقوم عليها بنيانه بعد ذلك .

ولعلم التفسير أصوله ، ولعلم الحديث أصوله ، كما للفقه أصوله ، ومن مجموع هذه العلوم الأصولية يتكون منهج المعرفة الشرعية فى الإسلام .

وقد شاعت عند المسلمين هذه الحكمة : من أضاع الأصول ، حُرم الوصول .

ومثله من قدم الفروع على الأصول ، لأن هذا خلل فى « فقه الأولويات » ، والواجب تأصيل الأصول أولاً ، ثم تفريع الفروع عليها ، إذ لا يقوم فرع على غير أصل ، والقرآن الكريم وصف الكلمة الطيبة بأنها « كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء » .

وأنا شخصيًا لا أرى مانعًا من استعمال هذا المصطلح ، لأن رفضه هنا يعنى أحد أمرين :

إما أننا فروعيون ، نهتم بالفروع لا بالأصول .

وإما أننا سطحيون ، لا نضرب فى الجذور ، ولا نمتد إلى الأعماق .

وكلا هذين المعنيين مرفوض ، فلا مانع من قبول المصطلح على أن نفسره نحن بما يناسبنا ، ويتلاءم مع جوهر رسالتنا وحضارتنا .

* * *

● **مفهوم الأصولية عندنا :**

وهنا نسأل : ما مفهوم الأصولية التى نريد أن نتحدث عنها ؟ أعنى الأصولية الإسلامية ؟

إنها تعنى العودة إلى الأصول ، أو الجذور ، فى فهم الإسلام ، والعمل به ، والدعوة إليه .

فما المراد بتلك الأصول التى يستقى منها الإسلام ؟

إنها - فيما أرى ، ويرى المسلمون طوال أربعة عشر قرنًا - : ثلاثة أصول :

الأول - وهو أصل الأصول - القرآن الكريم : الكتاب المبين والميسر والمحفوظ ، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وهو الآية العقلية الكبرى الدالة على نبوة محمد ﷺ .

والثانى : السُّنَّة النبوية : أعنى الصحيح الثابت المقصود به التشريع منها ، وهى الشرح النظرى ، والتطبيق العملى للقرآن ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ (١) .

والثالث : هو ما أجمعت عليه الأمة إجماعًا يقينيًا من أمور الدين : فإن هذه الأمة لا تجتمع على ضلالة ، ولا سيما فى قرون الصحابة أفقه الناس لمقاصد الإسلام ، وأكثرهم امتزاجًا بروحه ولبه ، ومن تبعهم بإحسان من تلاميذهم وأتباعهم ، بخلاف دعاوى الإجماع الكثيرة فى قضايا ثبت فيها الخلاف ، وكذلك الإجماع فيما بنى على مصلحة زمنية تغيرت ، أو عرف تغير .

هذا إذا نظرنا إلى « الأصول » بمعنى « المصادر » ، ولكن إذا نظرنا إلى الأصول بمعنى الأسس والدعائم والمقومات ، فسنجد أنها تعنى أمورًا أساسية أربعة :

---

(١) النحل : ٤٤

الأول : العقائد الأساسية التى يقوم عليها بناء الإيمان : وهى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وقد قال تعالى : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيدًا ﴾ (١) ، والإيمان بالقدر إنما هو جزء من الإيمان بالله تعالى ، لأنه مقتضى الإيمان بكمال علم الله تعالى ، وعموم مشيئته ، ونفاذ قدرته .

الثانى : الأركان الأساسية للعبادات العملية للإسلام : وهى التى بنى عليها الإسلام ، من إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت .

الثالث : الشرائع القطعية التى جاء بها الإسلام : فأحل بها الحلال ، وحرم الحرام ، وحدد بها العلاقات بين الناس ، أفرادًا وأسرًا وجماعات ودولاً ، وقد فرض بها عقوبات معينة على جرائم محددة ، وأقام بها الموازين القسط بين الناس ، ورسخ بها الأمن والإيمان فى الحياة ، وحافظ بها على المصالح الضرورية والحاجية والتحسينية للناس ، وراعى بها الفطرة التى فطر الناس عليها .

الرابع : القيم الأخلاقية والحضارية : التى جاء بها الإسلام ، فأقام بها الحق ، وأشاع بها الخير ، وأفاض بها الجمال ، ووطد بها عمارة الأرض ، والخلافة عند الله ، وتمم بها مكارم الأخلاق ، وأثبت بها تميز الإنسان .

---

(١) النساء : ١٣٦

والأصولى الحق هو الذى يلتزم بهذه الأصول كلها : فهمًا واعتقادًا وعملاً ودعوة ، وإن كان هناك تفاوت كبير ، وتمايز واضح بين الفضائل الأصولية المختلفة فى هذه الأمور .

والأصولية بهذا المفهوم فخر ومنقبة ، وليست تهمة ولا جريمة ، وقد قال الإمام الشافعى :

إن كان رفضا حب آل محمد فليشـــهد الثقلان أنى رافضى

ونحن نقول إن كان التمسك بالإسلام الصحيح : عقيدة وشريعة ومنهاج حياة ، والدعوة إليه ، والاعتزاز به ، والدفاع عن مبادئه وحرماته ، « أصولية » فليشهد الثقلان أننا « أصوليون » أقحاح ! .

* * *